تفسير سورة (آل عمران)

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٥٤، ١٥٥)



الإمام/ محمد عبده

اختلف المفسِّرون في وقت هذا النّعاس فقال بعضهم: إنَّ ذلك كان في أثناء الواقعة، وأنَّ الرَّجل كان ينام تحت ترسه كأنَّه آمنٌ من كلّ خوفٍ وفزعٍ، إلَّا المنافقين فإنَّهم أهمّتهم أنفسهم فاشتدَّ جزعهم، وحمل بعضهم هذه الآية على آية الأنفال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ (الأنفال: ١١)

وإنَّما هذه في غزوة بدرٍ، وقد مضت السُّنَّة في الخلق بأنَّ من يتوقَّع في صبيحة ليلته هَوْلًا كبيرًا ومصابًا عظيمًا فإنّه يتجافى جنبه عن مضجعه، ويبيت بليلة الملسوع فيصبح خاملًا ضعيفًا، وقد كان المؤمنون يوم بدرٍ يتوقَّعون مثل ذلك، إذ بلغهم أنَّ جيشًا يزيد على عددهم ثلاثة أضعافٍ سيحاربهم غدًا وهو أشدُّ منهم قوّةً وأعظم عدَّةً، فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق والسُّهاد يضربون أخماسًا لأسداسٍ، ويفكِّرون بما سيلاقون في غدهم من الشدة والبأس، ولكنَّ الله رَحِمَهُم بما أنزل عليهم من النُّعاس، غَشِيَهم فناموا واثقين بالله -تعالى- مطمئنِّين لوعده، وأصبحوا على همةٍ ونشاطٍ في لقاء عدوِّهم وعدوِّه، فالنُّعاس لم يكن يوم بدرٍ في وقت الحرب بل قبلها، ومثله المطر الذي أنزل

عليهم عند شدة حاجتهم إليه وقد قرن ذكره به في الآية التي ذكَّرتهم بعناية الله بهم في ذلك.

وأما النُّعاس يوم أحدٍ فقد قيل: إنَّه كان في أثناء الحرب، وقيل: إنَّه كان بعدها، وقد اتفق المفسرون وأهل السِّيَر على أنَّ المؤمنين قد أصابهم يوم أحدٍ شيءٌ من الضعف والوهن لما أصابهم من الفشل والعصيان وقتل طائفةٍ من كبارهم وشجعانهم، فكانوا بعد انتهاء الواقعة قسمين: فقسمٌ منهم ذكروا ما أصابهم فعرفوا أنه كان بتقصيرٍ من بعضهم، وذكروا الله ووعده بنصرهم فاستغفروا لذنوبهم ووثقوا بوعد ربهم وعلموا أنَّه إن كان قد غلبوا في هذه المرة، فإن الله سينصرهم في غيرها حيث لا يعودون إلى مثل ما وقع منهم فيها من الفشل والتنازع وعصيان قائدهم ورسولهم، فأنزل الله عليهم النعاس أمنةً، أو الأمنة نعاسًا، حتّى يستردوا ما فقدوا من القوّة بما أصابهم من القرح وما عرض لهم من الضعف، والنوم للمصاب بمثل تلك المصائب نعمةٌ كبيرةٌ وعنايةٌ من الله عظيمةٌ، وقد كان من أثر هذا الاطمئنان في القلوب والراحة للأجسام والتّسليم للقضاء، أن سهل على هؤلاء المؤمنين اقتفاء أثر المشركين بعد انصرافهم، وعزموا على قتالهم في حمراء الأسد عندما دعاهم الرَّسول إلى ذلك، فاستجابوا له مذعنين.

واتّفق الرواة أيضًا على أنَّ كثيرًا منهم كانوا مثقلين بالجراح فلم يقدروا على اقتفاء أثر المشركين فذلك قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ فهذه الطائفة من المؤمنين الضعفاء ولا حاجة إلى جعلها في المنافقين كما قيل، فإن هؤلاء سيأتي الكلام فيهم، وما من أمَّةٍ إلّا وفيها الضعفاء والأقوياء في الإيمان وغيره. وقد بيَّن ظنَّهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾ فنُلام أن وَلَّيْنَا وغُلِبْنَا؟ يعنون أنَّه ليس لهم من أمر النصر وعدمه شيءٌ، فإنهم فهموا مما وقع يوم بدرٍ أن النّصر وحقّيَّة الدِّين متلازمان، وعجبوا مما وقع في أُحُدٍ كأنه منافٍ لحقيقة الدين، وهذا خطأٌ عظيمٌ، أي فإنَّ نصر الله لرسله لا يمنع أن تكون الحرب سجالًا والعاقبة للمتَّقين.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ لا أمر النَّصر وحده، أي إنَّ كل أمرٍ يجري بحسب سننه تعالى في خلقه، ونظامه الذي ربط فيه الأسباب بالمسبّبات، ومنه نصر من ينصره

من المؤمنين. ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾، أي: لو كان أمر النصر والظفر بأيدينا لما وقع فينا القتل هنا، يقررون رأيهم، ويستدلّون عليه بما وقع لهم، غافلين عن تحديد الآجال؛ ولذلك أمر الله نبيه أن يجيبهم بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾، أي: لو كنتم وادعين في بيوتكم في سلمٍ وأمانٍ لخرج من بينكم من انتهت آجالهم، وثبت في علم الله أنّهم يقتلون كما يثبت المكتوب في الألواح والأوراق إلى حيث يقتلون ويسقطون من البَرَاز[1] فتكون مصارعهم ومضاجع الموت لهم، فقتل من قتل لم يكن لأنَّ الأمر ليس كله بيد الله، بل لأنّ آجالهم قد جاءت كما سبق في علم الله.

﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾، أي: يقع ذلك لأجل أن يكون القتل عاقبة من جاء أجلهم منكم، ولأجل أن يمتحن الله نفوسكم فيظهر لكم ما انطوت عليه من ضعفٍ وقوةٍ في الإيمان، ويطهرها حتى تصل إلى الدرجات العُلَا من الإيقان، وقد تقدم تفسير الابتلاء والتمحيص في هذا السياق ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾، أي: بالسرائر والوجدانات الملازمة للصدور حيث القلوب المنفعلة بها، والمنبسطة أو المنقبضة بتأثيرها، وقد يخفى ذلك على أصحابها فينخدعون للشعور العارض لها الذي لن يرسخ بالتجارب والابتلاء كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾، أي: إن الذين تولوا وفروا من أماكنهم يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في أُحُدٍ لم يكن ذلك التَّولِّي منهم إلا بإيقاع الشَّيطان لهم في الزَّلل، أي: زلُّوا وانحرفوا عما يجب أن يكونوا ثابتين عليه باستجرار الشَّيطان لهم بالوسوسة.

❁ ❁ ❁

(١) البراز بفتح الباء، الأرض الفضاء الخالية من الشجر.